الراعى والخالة

obeikandl.com

obeikandl.com

الراعى و الخالة

روت عزة بنت أبى قرصافة ، أنها سمعت جدّها أبا قرصافة صاحب رسول اللّه –صلى اللّه عليه وسلم– يقول : كان بدء إسلامى أنى كنت يتيما بين أمى وخالتى ، وكان أكثر ميلى إلى خالتى ، وكنت أرعى شويهات لى، وكانت خالتى كثيراً ما تقول لى:

يا بنى ، لا تمرّ إلى هذا الرجل ؛ تعنى الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – فيغويك ويضلك فكنت أخرج حتى آتى المرعى، فأترك له شويهاتى، ثم آتى النبى – صلى اللّه عليه وسلم – فلا أزال عنده ، أسمع منه ، ثم أروح بغنمى ضمراً ، يابسات الضروع .

وقالت لى خالتى : ما لغنمك يابسات الضروع ؟!

قلت ما أدرى ، ثم عدت إليه اليوم الثانى ، ففعل كما فعل فى اليوم الأول ، غير أنى سمعته يقول: "أيها الناس..هاجروا وتمسكوا بالإسلام، فإن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد".

ثم إنى رجعت بغنمى كما رجعت فى اليوم الأول ، ثم عدتُ إليه فى الثالث ، فلم أزل عند النبى – صلى اللّه عليه وسلم – أسمع منه حتى أسلمتُ و بايعتُ ، وصافحته بيدى ، وشكوت إليه أمر خالتى ، و أمر غنيماتى ، فقال لى رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم : "جئنى بالشياه" فجئته بهن ، فمسح ضروعهن و ظهورهن ، ودعا فيهن بالبركة ، فامتلأت شحماً و لبناً ، فلما دخلت على خالتى ، قالت : يا بنى ..هكذا فارع .

قلت : يا خاله ، ما رعيت إلا حيث كنت أرعى كل يوم ، ولكن أخبرك بقصتى وأخبرتها بالقصة، وإتيانى النبى – صلى اللّه عليه وسلم – وأخبرتها بسيرته وبكلامه ، فقالت أمى وخالتى :

اذهب بنا إليه ، فذهبت أنا ، و أمى و خالتى فأسلمنا ، و بايعنا رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – و صافحناه ، فهذا ما كان من إسلام أبى قرصافة و هجرته إلى النبى – صلى اللّه عليه وسلم . **(أخرجه الطبرانى . و أبو نعيم).**

....

هذه قصة إسلام الصحابى الجليل ، جندرة بن خيشنة ، المكنى بأبى قرصافة – رضى اللّه عنه – وهى تكشف عن منقبته و بيان فضله بوصفه واحداً من الرعيل الأول فى مدرسة النبوة الذين هداهم اللّه إلى الإسلام ، فاعتنقوه ، بعد سماع دعوة النبى – صلى اللّه عليه وسلم – و تدبرها و تأملها ، ولم يمنعهم عن الإسلام مانع من تخويف أو تهديد أو تحذير.

والقصة مع بساطتها ، تمثل نمطاً من القصص النبوى الشريف الذى يبدو فيه التشويق واضحاً من خلال الأحداث المتتابعة التى تقودنا إلى المغزى النهائى للقصة وتطلعنا على واقع قائم فى الحياة الجاهلية، يغيّره الإسلام بالدعوة والعمل والإخلاص .

إننا هنا أمام شخصية رئيسة ، هى شخصية جندرة بن خيشنة ، ذلك الراعى البسيط الذى يرعى عدة شياه قليلة يخاف عليها لأنها كل ممتلكاته أو ممتلكات خالته التى تربيه وتغدق عليه محبتها و حنانها ، وهى لخوفها عليه و شدة حبها ، تحذره من الذهاب أو الاستماع إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – حتى لا يفتنه فى عقيدته ، أو يغيرها ، ولكن حب الاستطلاع و المعرفة يدفعانه إلى الذهاب إلى الرسول الكريم و الاستماع إليه ، و ترك غنماته فى المرعى ترعى بمعرفتها و بأسلوبها دون أن يكون معها ..

يستمع جندرة أو أبو قرصافة إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فيجد فيما يستمع إليه شيئاً جديداً غريباً لم يألفه من قبل ، فيكرر المحاولة فى اليوم التالى ، ويرى أن الرسول االكريم يحث على الهجرة ، و التمسك بالإسلام ..

هنا يقع جندرة فى مأزق مع خالته ، فهو يرعى الشياه ، ولكن الشياه بسبب ذهابه إلى النبى تضمر و تجف ضروعها ، مما يعنى أن اللبن يقل ، و أن قيمة الغنمات تقل أيضاً فتسأل الخالة ابن اختها جندرة : ما لغنمك يابسات الضروع؟

و السؤال عن جفاف الضرع هنا مسألة مهمّة . لأن لبن الشياه هو الغذاء الرئيسى الذى تعتمد عليه الخالة و جندرة طعاماً أو غذاء .

و تكون إجابة جندرة : ما أدرى ؟ إنه لا يريد أن يبوح بالسّر الذى جعل الغنمات تيبس و تجف ضروعها ، وهو إهمالها ، و ذهابه إلى النبى الذى حذرته من الذهاب إليه .

وحين يعتنق جندرة الإسلام ، يشكو إلى النبى ما جرى لغنماته و أمر خالته ، فإذا به – صلى الله عليه وسلم – يدعو بالبركة بعد أن يمسح ضروعها و ظهورها ، فتتمتلىء الغنمات شحما و لبناً .

هذا الموقف الذى غيّر حال الغنمات ، يكون له صداه وردّ فعله ، لدى الخالة والأم معاً فيقولان اذهب بنا إليه .

إن الأم والخالة مأخوذتان بالتعبير الذى جرى للغنمات، لأنه ليس تغييرا تلقائيا أو عشوائيا أو اعتباطيا ، ولكنه جاء بعد دعاء الرجل الذى حذرته الخالة ابن اختها من الذهاب إليه ، و الاستماع له .

وعند النبى – صلى الله عليه وسلم – تسلم الخالة و الأم ، و يدعمان بالضرورة إسلام أبى قرصافة ، و يدخل الرجل إلى مدرسة النبوة ليكون صحابيا جليلاً ، ومجاهداً بقلبه وروحه فى سبيل الدعوة بوصفه من الأوائل الذين سبقوا و آزروا .

ومن المؤكد أننا نلاحظ هنا طبيعة العلاقة الإنسانية بين الأقارب ، فابن خيشنة هذا الصحابى الجليل ، يفضل خالته على أمه ، وهويتيم . إن اليتيم يفترض فيه أن يقترب من الأم أكثر من اقتراب من أى أحد آخر ، بعد رحيل الأب ، ولكنه يرتبط بخالته ، وواضح أن هذا الارتباط يعود إلى الحنان والمودة والحب الذى تغدقه الخالة على ابن اختها ، ولعل هذه الخالة لم تنجب ، فاتخذت أبى قرصافة ابناً لها تبث فيه كل مشاعر الأمومة التى حرمت منها ، وهو ما يفسر لنا ، سرّ تعلق ابن الأخت بها .

كما نلاحظ أن الناس عادة يستجيبون للكلام الذى يسمعونه فى مجال التخويف والترهيب ، دون أن يسألوا أو يتبينوا أو يتأكدوا أو يسمعوا الكلام من مصدره ، ولعل هذه الخالة التى أمرت ابن اختها الراعى ألا يذهب إلى محمد خوفاًعليه أن يغير معتقده ويضله عن طريق آبائه وأجداده فى عبادة الأصنام ، لو كانت قد استمعت جيداً إلى كلام النبى – صلى الله عليه وسلم – وتدبرته جيداً ، لكان لها رأى آخر ، وهو ما حدث بالفعل ؛ بدليل أنها حينما سمعت من ابن اختها ما جرى للشياه على يد محمد – صلى الله عليه وسلم – غيرت رأيها مع أختها ، وأعلنتا إسلامهما ، ودخلتا فى دين الله ولكنها مثل غيرها من الناس ، انساقت وراء الأراجيف التى يروّجها الرافضون للإسلام من أهل مكة ، مما جعلها تحذر ابن اختها من الذهاب إلى محمد والاستماع إليه حتى لا يضّل .

لا ريب أن هذه خلة ذميمة فى كل زمان ومكان أن ينساق الناس وراء الأراجيف ولا يسعون إلى معرفة الحقيقة ، وتبّين طبيعة ما جرى، ولأمر ما كانت الآية الكريمة التى نزلت فى سورة الحجرات .

"يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ" (سورة الحجرات الآية ٦)

تمّثل منهجاً إسلاميا راقيا يتفق بجهالة العقل والحكمة فى الاستيضاح والاستيثاق مما نسمع وينقل إلينا، وهناك قراءة أخرى للفعل فتبينوا حيث يقرؤها بعض أصحاب القراءات فتثبتوا:، والتثبت والتبين كلاهما بمعنى واحد، والغاية منهما هى معرفة الحقيقة، بدلاً من تصديق ما يلقى علينا، فنقع فى الخطأ إن كان ما يلقى غير صحيح.

وتشير القصة إلى ملمح مهم من ملامح الحياة العملية ، وهو ضرورة الاهتمام والمتابعة والرعاية لأعمالنا حتى تنضج وتكتمل وتصل إلى غاياتها المرجوة . وقد رأينا أن الغنمات التى تركها أبو قرصافة ، قد يبست وضمرت ، فتغير شكلها إلى الأسوأ، وقلّ

لبنها، مما أصاب خالته بحالة قلق عليها، ومعنى ذلك أن إتقان العمل مسألة أساسية فى الحياة العامة لا يمكن الاستغناء عنها أو تجاوزها . وهو ما ألح عليه الإسلام فيما بعد فى أكثر من موضع فى القرأن الكريم و الحديث الشريف . قال تعالى :

" .....إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً" (سورة الكهف من الآية ٣٠)

وقال – صلى اللّه عليه وسلم – إن اللّه يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .....".

وفى ضوء ذلك يمكن أن نفهم دعاء الرسول – صلى اللّه عليه وسلم لأبى قرصافة بالبركة ، و مسح ضروع الغنمات و ظهورها ، وقد استجاب اللّه لنبيه – صلى اللّه عليه وسلم – فامتلأت الغنمات شحماً و لبناً ، وهو ما جعل المعجزة تؤثر على الخالة و الأم ، فتقرران الذهاب إلى النبى – صلى اللّه عليه وسلم – و تعلنان إسلامهما – إن المعجزة هنا دليل مادى تحتاجه الدعوة لدعم موقفها ، و إقناع المدعوين بالدخول إلى ساحتها ، و الاستماع إلى مفاهيمها ومعطياتها ، و التصديق بالرسالة و الرسول .

و يبقى الملمح المهم فى القصة النبوية وهو دعوة الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – المسلمين إلى الهجرة و التمسّك بالإسلام ..فالهجرة فرار بالدين فى ظل الظروف غير المتكافئة بين الدعاة أو المسلمين من ناحية ، و بين أعداء الدين و أنصار الظلام و الطغيان من جانب آخر. و عادة ما يكون الأعداء أكثر قوة وأشدّ بأسا، والمؤمنون أقل قوة ، وأكثر ضعفا مادياً، ولكنهم أشدّ إيمانا وأقوى يقينا . و هنا يكون الصراع محتدماً و صاخباً ، و يقع على جانبيه كثير من الضحايا و الخسائر ، ولكن المؤمن فى هذا الصراع لا يهتز ولا يهون ولا يقبل الدنية مهما كانت التكاليف باهظة.

إن الهجرة بالدين ومن أجل الدين لا تنقطع ما دام الجهاد ، فالجهاد هو حياة المؤمن منذ مولده حتى لقاء ربه فى الآخرة . الجهاد هو عمل مستمر و دأب متواصل من أجل إصلاح الدنيا بالدين ، و إقامة الحق و العدل و المساواة بين الناس ، فى ظل الإيمان الخالص بالواحد الأحد و رسوله – صلى اللّه عليه و سلم – هل هذا هو مغزى القصة التى حكتها حفيدة " أبو قرصافة" ؟ .

بالطبع هو مغزى رئيسى فى القصة إن لم يكن كلّ مغزاها ، فالجهاد يتوازى مع الهجرة دائماً. هجرة إلى اللّه ، ومن أجل اللّه ، و فى سبيل اللّه .

قصة إسلام عمرو بن العاص

obeikandl.com

obeikandl.com

قصة إسلام عمرو بن العاص -١

يقول حبيب الثقفى : حدثنى عمرو بن العاص من فيه ، قال :-

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون منى .

فقلت لهم : تعلمون والله أنى أرى أمر محمد يعلو علوا منكرا ، وإنى قد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟

قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن تلحقوا بالنجاشى فتكونوا عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فإنا نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد . وإن ظهر قومنا فنحن من عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا : إن هذا لرأى .قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم . فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم قد بعثه فى شأن جعفر و أصحابه ، قال : فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، قال : فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى . لو قد دخلت على النجاشى و سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه .

فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول الله .

قال : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحباً بصديقى ، أهديت إلىّ من بلادك شيئاً ؟

قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت إليك أدماً كثيراً ، قال : ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول الله عدوّ لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا و خيارنا ، قال : فغضب ، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت الأرض لدخلت فيها فرقاً منه ، ثم قلت له : أيها الملك و الله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه .

قال أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر ، الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟

قال : قلت أيها الملك أكذاك ؟

قال : ويحك يا عمرو !!! أطعنى و اتبعه ، فإنه و الله لعلى الحق و ليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى – صلى الله عليه وسلم – على فرعون و جنوده ....

(حديث صحيح . أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي وغيرهم).

. . . . . .

تكشف قصة الحديث الشريف عن الكيفية التى أسلم بها عمرو بن العاص ، ذلك الصحابى الجليل الذى اتصف بالدهاء و الحكمة و الفروسية .

و عمرو بن العاص ليس رجلاً عادياً ، فهو زعيم بكل المقاييس ، و صاحب عقلية كبيرة وله تاريخ عظيم ، منذ إسلامه – بل قبل إسلامه – حتى وفاته .

فعمرو هو أحد فرسان الفتح الإسلامى ، الذين نقلوا إلى العالم خارج الجزيرة العربية نور الإسلام ، وهو فاتح مصر ، فأهداها نعمة الإسلام ، و حرّرها من الرومان الطغاة الغزاة ، وهو الذى أعاد الروح و الحياة للنصرانية المضطهدة فى مصر ، فلولا فتح عمرو لمصر ، لظلت النصرانية ديانة سرّية يقوم عليها الكهنة فى المخابىء البعيدة و المنافى الغريبة ، و لكن عمراً نقلها إلى النور و العلن ، بعد أن قضى على الرومان الظلمة الذين اضطهدوا النصرانية فى مصر ، وفرضوا مذهبهم الملكانى على أهلها ..لذا يقال إن النصرانية هدية الإسلام إلى نصارى مصر!

و عمرو بن العاص له تاريخ حىّ و ممتد فى الفتوحات الإسلامية ، وفى السياسة التى خلقت صراعاً بين الصحابة – رضوان الله عليهم ..و كان له فى العديد من حوادث الأمة الناشئة الناهضة نصيب ، تحدث عنه المؤرخون و أكثروا ، ومازالوا يتحدثون .

و القصة الواقعية التى بين أيدينا تكشف عن مرحلة أخرى من حياة عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وهى مرحلة الجاهلية ، أى قبل دخوله إلى ساحة الإسلام وواحته الخضراء فقد كان زعيما مهمّا فى قريش ، و فارساً من فرسانها المبرزين ، و أسهم بقدر كبيرفى المعارك التى خاضتها قريش ضد النبى – صلى الله عليه وسلم – و المسلمين ، فى المدينة غزوة بدر ، و غزوة أحد ، و غزوة الخندق ، التى انهزمت فيها قريش ، ورجعت تجر أذيال الخيبة و العار. و كانت هذه الغزوة مفصلاً مهّماً فى حياة عمرو ، فقد فكر فى الانتقام من المسلمين ، ولكن تفكيره انقلب إلى هداية له فدخل الإسلام ، وصار جنديا من جنود الله يدافع عن الدين الحنيف ، و يقود الجيوش الإسلامية إلى نصر تلو نصر، وإلى فتح يعقبه فتح ..

لقد كان عمرو فى الجاهلية زعيماً بحق ، و بذل جهداً جباراً فى مقاومة الإسلام ليس داخل مكة فى ولكن خارجها ، وقد ذهب إلى الحبشة ليثنى النجاشى امبراطور الحبشة عن قبول المهاجرين المسلمين و كانت له علاقة حميمة معه ، و أراد أن يستثمر هذه العلاقة بعد هزيمة الخندق ، ليؤذى المسلمين و يسىء إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ولكن خاب ظنه ، و أخفق سعيه ، مما كان سبباً فى هدايته و إيمانه ...

لقد كانت علاقته قوية بالنجاشى ، وكان يقدم له هدايا عربية يحبها الامبراطور وهى الجلود المدبوغة التى يسميها الأدم ، ففكر أن يهديه شيئاً منها ، ويطلب منه أن يسلمه عمرو بن أمية الضمرى رسول رسول اللّه إلى النجاشى ، ليقتله ، فيشفى بذلك صدر قريش بعد هزيمتها فى غزوة الخندق ، ولكن النجاشى لم يمكنه من ذلك ، بل غضب عليه غضباً شديداً ، حتى تمنى عمرو أن تنشق الأرض وتبتلعه ...

و يفاجأ عمرو أن النجاشى يؤمن بنبوة محمد – صلى اللّه عليه وسلم – ويخبره أنه يأتيه الناموس الأكبر ، أى الوحى ، الذى كان يأتى لموسى ، و يستنكر النجاشى أن يسلّم رسول رسول اللّه ، إلى عمرو ليقتله ...إنه ينهر عمراً و يطلب منه أن يطيعه و يتبع محمداً ؛ فإنه واللّه لعلى الحقّ ، و ليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى – صلى اللّه عليه وسلم – على فرعون و جنوده ...فماذا فعل عمرو ؟

إسلام عمرو بن العاص -٢

بعد أن غضب النجاشى على عمرو بن العاص ، لأنه طلب منه أن يمكنه من رسول رسول الله فيقتله ، وقال له النجاشى إن محمداً على الحق و سينتصر على من خالفه ، قال عمرو للنجاشى :

"**قلت**" أفتبايعنى له على الإسلام ؟

قال : نعم ، فبسط يده فبايعته على الإسلام . ثم خرجت إلى أصحابه ، وقد حال رأيي عما كان عليه ، و كتمت أصحابى إسلامى .

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبل من مكة ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال:والله لقد استقام النسم، وإن الرجل لنبى، اذهب والله فأسلم، حتى متى؟

قال : قلت: و الله ما جئت إلا لأسلم ، قال : فقدمنا المدينة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، و بايع، ثم دنوتُ فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولا أذكر ما تأخر ؟

قال : فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :"**يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يجّبُ كل ما كان قبله و إن الهجرة تجب ما كان قبلها** " .

قال : فبايعته ، ثم انصرفت ...

....

تمثل أحداث القصة المتتابعة سرداً واقعيا يستشعره القارىء أو السامع ، ويحسّ من خلاله يصدق الرواية التى ذكر صاحبها ما يتعلق به و بغيره فى سياق الوصول إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أجل إعلان الإسلام ، و الدخول إلى ساحته الرحبة .

ونستشعر شيئاً من دهاء عمرو بن العاص ، وهو يسرد لنا قصة إسلامه ، فقد رأى النجاشى ، وهو الامبراطور الذى يحكم بلاداً بعيدة ، ولا ينتسب إلى العرب

بصلة اللهم إلا الجوار البعيد إذا عددنا الحبشة مجاورة للجزيرة العربية ، هذا الامبراطور يشهد لمحمد و يعلن عن صدق رسالته ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن محمداً على الحق و سينتصر على من خالفه ، كما انتصر موسى عليه السلام على من خالفوه ..عمرو يسمع هذه الشهادة و ذلك الإعلان وتلك النبوءة بانتصار محمد ، فيستجيب للنجاشى ، و يبايعه على الإسلام بعد أن رأى شهادة صادقة تعبّر عن الحقيقة التى حاول عمرو أن يتجاهلها كثيراً مع قومه ، وفى سبيل هذا التجاهل شنّ أكثر من حرب على الرسالة و الرسول فانتصر فى بعضها القليل، وانهزم فى بعضها الكثير ، وهو فى الحالين لم يقض على الدعوة أو الداعية ، بل إن الإسلام يتمدد مع مطلع كل صباح ، و ينتشر فى كل مكان ...

إن مبايعة عمرو للنجاشى تمثل الصورة الدرامية إن صحّ التعبير لرجل تحول مائة وثمانين درجة فى مقصده و معتقده ، فقد ذهب إلى النجاشى ليؤذى المسلمين ، و يقتل عمرو بن أمية الضمرى ، و يسّر فى الوقت نفسه أصحابه و عشيرته من قريش ، بل أهل مكة جميعاً ، و لكنه لم يحقق شيئاً من ذلك ، ووجد النجاشى فى صف محمد و أصحابه بل يبايعه ، بأن الانتصار الساحق آت لا محالة ، كما انتصر موسى عليه السلام ؛ وهنا لا يجد عمرو غضاضة فى إعلان الإسلام على يد النجاشى، و يخرج من عنده كاتماً إيمانه حتى يصل إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – فيعلن إسلامه أمامه .

إن كتم عمرو لإيمانه حتى يصل إلى الرسول عليه الصلاة و السلام ، يصنع حالة من التشويق القصصى و أيضا الترقب لدى المستمع أو القارىء الذى يريد أن يعرف ، لماذا خرج عمرو من عند النجاشى ، ولم يخبر أصحابه بما حدث منه أو بأمر مبايعته للنجاشى على الإسلام ، و نتابع معه القصة حتى يلتقى بخالد بن الوليد ، الفارس الموازى فى قريش الذى حارب أكثر من معركة ضد المسلمين ، و حقق

انتصاراً فى غزوة أحد فرحت به القبائل الجاهلية ...ولكنهما حين يلتقيان يبدوان وقد اتفقا على أمر واحد دون أن يعرف أحدهما ما ينويه الآخر، و هنا تكون مقولة خالد ردّاً على سؤال عمرو: إلى أين يا أبا سليمان ؟ مقولة ذات مغزى و ذات دلالة:

" واللّه لقد استقام المنسم " مثل عربى يُضرب حين يتضح الأمر و تستبين أبعاده وجوانبه ، فلا يكون هناك خفاء ولا التباس ولا شك ، و خالد يقصد أن الإسلام قد صار هو الطريق الذى يجب أن يسلكه ولا طريق غيره ، بعد زمن طال فيه الصراع ، و اتسعت الدعوة ودخل خلق كثير فى دين اللّه ...و بدأت تباشير الفتح الأكبر...فتح مكة ، و انهزام المعسكر الجاهلى هزيمة ساحقة إلى الأبد !

إذاً عمرو يلتقى مع خالد على الإسلام و الذهاب إلى المدينة لإعلانه و هنا يبدو الأمر الذى كتمه عمرو فى سبيله إلى الظهور، أو قل بلغة القصة إن العقدة بدأت تنحل ، و تقترب القصة من ذروتها ...لقد ذهب الرجلان إلى الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – فبايع خالد بعد أن أسلم ثم جاء الدور على عمرو ...وكان عمرو الذى يستشعر قسوة ما فعل ضد المسلمين يريد أن يثق أن هناك أملاً فى غفران ذنوبه ، وفى صفحة جديدة بيضاء و نقية داخل ساحة الإسلام

" إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولا أذكر ما تأخر ؟" أى إنه يريد أن يغتسل من الماضى ، أما المستقبل فسيتحمل مسئوليته كاملة .

ولأن الإسلام دين الرحمة ، فإن الرسول – صلى اللّه عليه وسلم يؤكد لعمرو أن الإسلام يجبّ أى يقطع ، أى يمحو ما كان قبله من ذنوب ، و إن الهجرة سعياً من أجل الدين تجب ما كان قبلها و تمحوه و هو ما جعل عمراً يبايع ، ثم ينصرف .

إسلام عمرو بن العاص -٣

بعد أن أسلم عمرو بن العاص ، و بذل جهداً كبيراً فى سبيل الدعوة و الفتح حضرته الوفاة ، و يحكى ابن شماسة المهرى ، فيقول :

فحضرنا عمرو بن العاص ، وهو فى سياقة الموت ، فبكى طويلاً و حوّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه ، أما بشرك رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – بكذا ؟! أما بشرّك رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – بكذا ؟!!

قال : فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمداً رسول اللّه ، إنى قد كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيتنى وما أحد أشد بُغضا لرسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – منى ، ولا أحب إلىّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلومتّ على تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل اللّه الإسلام فى قلبى ، أتيت رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك ، فبسط يمينه .

قال : فقبضت يدى ، قال : " مالك يا عمرو ؟! " قلت : أردت أن أشترط . قال : تشترط بماذا ؟

قلت : يغفر اللّه لى . قال : " إما إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، و أن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، و أن الحج يهدم ما كان قبله " .

وما كان أحد أحب إلىّ من رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – ولا أجل فى عينىّ منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقتُ ، لأنى لم أكن أملأ عينى منه و لو متّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها ، فإذا أنا متّ فلا تصحبنى نائحة ، ولا نار ، فإذا دفنتمونى فشنوّا على التراب شنّاً ، ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر الجزور حتى أستأنس بكم ، و أنظر ماذا أُراجع به رسل ربى ".

....

نحن هنا أمام نفس صافية تعبر عن ذاتها بأصدق ما يكون التعبير، وهى تفارق الدنيا، وترحل إلى الآخرة. إن عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت أو حضرة الموت يبكى طويلاً ، ويحوّل وجهه إلى الجدار كى لا يراه المحيطون به ممن يجلسون بجواره ، و يشهدون احتضاره ، و مثل عمرو حين يبكى بكاء طويلاً خوفاً من الله . وهو الصحابى الجليل الذى أفنى حياته الإسلامية فى خدمة الإسلام و المسلمين ؛ ونشر الدعوة فى أكثر من ناحية من نواحى الأرض ، يدل على مدى خوفه من الله ، و خشيته من لقائه مع كل ما قدمه و بذله من جهد و جهاد ...

إن بعض الناس لا يعبأ بما فعل ، ولا يفكر أصاب خيراً أم شراً ، و يمضى على هواه ويظن أن المسألة فى الآخرة سهلة و بسيطة ، و لسان حالهم يقول: إن الله غفور رحيم. وما هكذا تكون الأمور.

صحيح أن رحمة الله وسعت كل شىء، ولكن الأخذ بالأسباب ضرورة ، والتوبة النصوح لازمة و العمل الصالح مقدمة ، و بعدها فإن الأمل فى رحمة الله باب لا يمكن إغلاقه ، أما الذين يسيرون على هواهم ، ويظنون أن كل شىء رهن إشارتهم ، فهم واهمون . إننا لا نتألى على الله ولا نستبق رحمته ، ولكنه سبحانه أمرنا بالعمل الصالح و اجتناب العمل الطالح .

وقال تعالى :-

" وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ" (سورة التوبة الآية ١٠٥)

وقال تعالى :-

" فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ"

(سورة الزلزلة الآيات ٧-٨)

ومن هنا نفهم سرّ بكاء عمرو بن العاص ، وهو على فراش الموت ، وهو سرّ منهج الصحابة رضوان الله عليهم فى خشيتهم من ربهم ، وهو ما تحدث به الخليفة

الأول ؛ الصديق أبو بكر ، الذى كان يشير دائما إلى أنه لا يأمن مكر الله ، مع أنه من المبشرين بالجنة ..

ونلاحظ أن التبشير بالجنة هو فتح لباب الأمل فى رحمة الله ؛ فى الوقت الذى يستشعر فيه المسلم صعوبة القبول ؛ بسبب أحداث أو أخطاء مضت ، وها نحن نرى ابن عمرو بن العاص ، يسعى إلى بث الأمل فى نفسى أبيه .

و يقول له : أبتاه ، أما بشرّك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بكذا ؟ أما بشرك رسول الله –صلى الله عليه وسلم بكذا ؟

ويكون كلام ابنه سبباً فى تفاؤله ، و العودة بوجهه إلى من حوله ذاكراً أن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ...يقصد أساس العقيدة و التوحيد و صدق الرسالة والرسول ، ثم يلتفت إلى ماضيه أو قصة حياته فيذكر أنه مرّ بثلاث مراحل ، الأولى كان فيها مبغضا شديد البغض لرسول الله – صلى الله عليه وسلم ، و تمنّى لو تمكن منه فقتله ، ولو كان استمر على هذه الحال لكان من أهل النار.

الثانية لما جعل الله الإسلام فى قلبه جاء فبايع الرسول – صلى الله عليه وسلم فلما بسط بسط يده للمبايعة قبض عمرو يده ليشترط الغفران ، فأخبره الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن الإسلام و الهجرة و الحج ، كلها تهدم ما قبلها وتجعله كأن لم يكن .

أما الحال الثالثة و الأخيرة هى حبه للرسول – صلى الله عليه وسلم – " ولا أجل فى عينىّ منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاله ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت" ويرجو عمرو أن يكون موته على هذه الحال طريقه إلى الجنة .

إن عمرو بن العاص ، الذى ملأ الدنيا و فتح الآفاق ، يتواضع و يخشى و يبكى و يقرّر مبادىء مهمّة فى توديع الراحلين من الأحياء إلى عالم الدار الآخرة ، فيوصى

بأنه إذا مات لا تصحبه نائحة ولا نار، كما كان يفعل أهل الجاهلية ، ويطلب أن يصبّ عليه التراب صبّاً عند الدفن ، و أن يقيم الناس حول قبره وقتا يساوى القدر الذى تذبح أو تنحر فيه الإبل الجزور؛حتى يستأنس بهم وينظر كيف يراجع الملائكة!

لاشك أن حياة عمرو بن العاص الإسلامية حافلة بالعطاء و الجهاد و المواقف التى تقدم العبرة و العظة وكان فى لحظة احتضاره أروع واعظ لمن يتعظ . رضى الله عنه ورحمه .

obeikandl.com